

## الأثار التاريخية لمدينة دمشق خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة

### (Historical Monuments of Damascus in the light of the Travelogues of *Ibn Jubair* and *Ibn Battūta*)

**Aatika Aslam**

*Doctoral Candidate Arabic, The Islamia University of Bahawalpur/ Assistant Professor  
of Arabic Govt. Degree College for Women Satellite Town Bahawalpur*

**Prof. Dr. Sheik Shafiq-ur-Rehman**

*Dean Faculty of Islamic Studies, The Islamia University of Bahawalpur*

### **Abstract**

Everything has an end and nothing is eternal in this world. Some people come and others are annihilated. These annihilated nations leave their inscriptions, historical and religious monuments and other remaining's which become cultural and intellectual symbol for later generations . Damascus is one of the oldest inhabited cities in the world which is closely linked with important historical events, ideas, traditions and traces of earlier cultures especially from the Islamic period. It also testifies to the unique aesthetic achievements of the civilizations as well as it exhibits outstanding evidences of the civilizations which created it . In this regard traveller's travelogues plays a very important role to get accurate records of particular peoples, places, customs and ceremonies etc. We see that travellers towards Damascus paid their best efforts to give an account of the prevalent social milieu and a deep insight into their culture, habitation and historical and religious monuments which is important not only for Muslims but also for other religions. This article is a

comparative study of Damascus' historical and religious monuments in the light of the travelogues of *Ibn Jubair* and *Ibn Battūta* which specially discusses the existence of these Places, their history and geography such as the Tomb of Maryam, cave of Prophet Ibrahim, *Qubūr al-Shuhadā'*, the Mosque of al-Qadam and Umayyad Mosque etc.

**Keywords:** Historical monuments, Damascus, travelogues, *Ibn Jubair*, *Ibn Battūta*

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد: إن دمشق وآثارها لها تاريخ يزيد من تسعة آلاف سنة قبل الميلاد وتعتبر دمشق أقدم عاصمة في العالم وقد نالت آثار دمشق مكانة ومنزلة فريدة وقد تركت الأجيال السابقة آثارها كي تكون شواهد وتاريخ للأجيال القادمة وهكذا تكون رمزا ثقافيا وحضاريا وفكريا، وتتيح هذه الآثار فرصة للإنسان في الوقت الحاضر أن يطلع على الحياة اليومية الخاصة بالإنسان القديم من خلال دراسة الآثار التي تركوها، وقد لعب الرحالون دورا حاسما في هذا المجال حيث شقوا أمواج البحار و صعدوا الجبال وركبوا جمالهم و خيولهم في الصحارى لمعرفة أحوال الأمم والأجيال السابقة. فلهم فيه تاريخ يعتبر في نفسه تاريخ. ويمتاز ابن جبير وابن بطوطة بأسلوبهما الخاص بين الرحالين و رحلاتهما ليست رحلات فحسب بل هي ثقافة، حضارة، وتاريخ دول العالم والأقوام المختلفة. يتعرف القارئ خلال قراءتها عن الآثار والأماكن والمواضع والأحداث والوقائع التي ليست في سيطرة عامة الناس. وهذا البحث الذي هو في أيدينا دراسة عن آثار دمشق في ضوء رحلات ابن بطوطة وابن جبير، وأما المنهج الذي اتخذناه في إعداد هذا البحث فقبل الانتقال إلى الموضوع الرئيسى ذكرنا تعريف أدب الرحلة وتاريخه وموضوعه ونشأته وتطوره ونبذة عن حياة ابن جبير وابن بطوطة وقيمة رحلاتهما ويهي هذا البحث فرصة قيمة للقارئ يطلع خلالها على آثار دمشق التاريخية والدينية وغيرها وتكون أمامه صورة كاملة لهذه الآثار في صفحات قليلة. نتمنى أن يكون هذا البحث نافعا لقارئ الأدب العربي وخاصة لمن له رغبة في الإطلاع والبحث عن آثار دمشق و أدب الرحلة. حسبنا الله ونعم الوكيل.

## الرحلة

الرحلة من الإرتحال ومعناه الإنتقال من مكان إلى مكان آخر لتحقيق هدفٍ معين، مادياً كان ذلك الهدف أومعنوياً<sup>1</sup> فالرحلة أوالترحال أوالتنقل قد عرفها الإنسان بفطرتة منذ خليقته وهبوط آدم وحواء إلى الأرض فهي أول رحلة قام بها الانسان من بساتين الجنة إلى الأرض وأشار إليه عزوجل في كتابه: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾<sup>2</sup> فجرت رحلات البشر منذ ذلك التاريخ كما وجدنا أدلة نقلية وتاريخية. فالأدلة النقلية يبينها القرآن الكريم كرحلة نوح وأتباعه في السفينة، ورحلة موسى من مصر إلى مدين عند شعيب، وأيضاً رحلته مع اليهود ورحلته العلمية إلى خضر، ورحلة ابراهيم مع زوجته وطفله إسماعيل. أما الأدلة التاريخية فقد ثبتت بالآثار القديمة والكتب التاريخية، منها رحلة ملوك مصر إلى آسيا ورحلة ملكة حتشبسوت إلى بلاد الصومال ورحلات الفينيقيين إلى المحيط الأندلسي والجزائر البريطانية ورحلات أهل روما إلى جزائر كناريا في المحيط الأندلسي وإلى الهند والشرق والأقصى. ويتضح إستمرار الرحلة من ثبوت التواصل في العصور القديمة بين قري مبعثرة فوقت رقعة هائلة من المعمورة.<sup>3</sup> فإن طبيعة الحياة العربية والإقتصادية دفعت الإنسان إلى الحركة والتنقل والرحلة في سبيل العيش وبقائه، فأصبحت الرحلة سمة متميزة في حياة العرب حتي تجلت في شعره كما يقول ابن قتيبة في كتابه الشهير "الشعر والشعراء": "إن وصف الرحلة احتل المرتبة الثالثة بعد بكاء الأطلال والنسيب".<sup>4</sup> ولكن ليست بطبيعة الحياة العربية والإقتصادية سبب واحد بل تعددت دوافعه حسب مكان إلى مكان وشخص إلى شخص وبلد إلى بلد وزمن إلى زمن، والدوافع المعروفة التي كانت ولا تزال معروفاً هي دوافع دينية كرحلات الحج أورحلات علمية أوسياسية أوإقتصادية أوسياحية أوفي بحث الأمن هروباً من الظلم أو للعلاج وغيرها.فقام المسلمون والعرب الأوائل عديداً من الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية وجميع الإتجاهات فدون هؤلاء الرحاليين رحلاتهم وذكر فهم مشاهداتهم بشكل فني خاص فعرف هذا الفن "بأدب الرحلة".

<sup>1</sup> محمد بن مكرم بن على ابن منظور الافريقي، لسان العرب (بيروت: دار صادر، 1414هـ)، 11: 279.

<sup>2</sup> البقرة 2: 38.

<sup>3</sup> فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي (قاهرة: مكتبة الدار العربية، 2002ء)، 25، 28: ويُنظر: شوقي

ضيف، الرحلات (قاهرة: دارالمعارف)، 7، 8.

<sup>4</sup> أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء (قاهرة: دار الحديث، 1944ء)، 1: 74.

## أدب الرحلة: مفهوم وفوائد وموضوع

كل شيء ما يلاحظ الرحال ويعيشه ويدرس عن وقائع وأحداث البلد الأجنبي بعادات سكانهم وتقاليدهم وكذلك خلفيتهم السياسية والثقافية والإجتماعية والإقتصادية، وملامح يوافقها الرحال ومواقف قد تأثر بها الأديب، وهموم عاني منها في تلك المدينة الأجنبية أو البلد الأجنبي طالت أم قصرت مدة اقامته فيها ومشاعر تختلج في نفس المغترب تجاه الأمور السابقة وكذلك جغرافيا ذلك البلد. هذا الفن من أهم فنون الأدب العربي ولكن لم يكن معروفاً بأدب الرحلة أو أدب الرحلات بل نجد أحيانا في كتب التاريخ أو السيرة الذاتية أو الجغرافيا أو أدب الاعتراف. فسمي تسمية "أدب الرحلة" في العصر الحديث حسب شواهد من دراسات وتقسيمات لفنون واللوان المعروفة الادبية فوجدنا لها تعريفات عديدة ولكن أنسبها مايلي:

هونوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ماجري له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها إلى أحد البلدان". "أويملي أويحدث مشاهداته ومشاعره تجاه ما سمع وما رأي، ويسطر ذلك شخص آخر". وهناك من يعرفه بأنه: "نوع من

النثر الأدبي يستمد موضوعاته من الرحلات ويكتب بلغة أدبية.<sup>5</sup>

يمكن أن نقول بأن أدب الرحلات ليس وصفاً تاريخياً أو جغرافياً فقط بل يجب أن يكون النثر الفني مسجلاً بكل ما شاهده خلال رحلاته بأسلوب أدبي ممتع مؤثر. فوجدنا هذا النوع في الأدب العربي منذ القرن العاشر الميلادي ولا يزال مستمراً بل تطور وتتنوع. يفيد أدب الرحلة لقارته معلومات ثمينة وممتعة عن بلاد أجنبية عبر القرون بكل ما شاء عن ثقافتها وإجتماعها وجغرافيتها وغيرها بأسلوب ممتع رائع كأنه يراها رأي العين وذلك بدون كلف وهو مستريح في الغرفة.

## لمحة تاريخية عن الرحلات العربية الإسلامية

لا شك أن العرب الأوائل عرفوا السفر ومارسوا الترحال بطبيعة الحياة العربية والاقتصادية وورد ذكر هذه الرحلة في القرآن الكريم "برحلة الشتاء والصيف" ورحلوا رحلات بحرية شرقاً وغرباً. ووسع دور الرحلات العربية بمجيئ الاسلام وعدد دوافعها حتي بلغت على قممتها وذروتها خلال الفتوحات الاسلامية وعصور الإنفتاح حتي القرن الخامس الهجري، ثم ظهرت التدهور في هذا النوع ولم يكن من الممكن تطورها وازدهارها لمدة طويلة بل ضعفت نشاطها إلا بعض الإستثناءات

<sup>5</sup>Mustapha Benaissa. "الرحلة وأدبها في اللغة العربية". Accessed Dec 24,2020.

كمثل رحلات ابن بطوطة ورحلات ابن خلدون المؤرخ الشهير. واستمر ذلك الضعف حتى جاء العصر الحديث فحاول بعض الأقلام بهوضه. فأذكر من هؤلاء الرحالة ابن جبير وابن بطوطة ورحلاتهما كما أذكر الآثار التاريخية لمدينة دمشق خلال رحلتيهما.

### ابن جبير

ولد الرحالة الشهير، المؤرخ، الأديب محمد بن أحمد بن جبير<sup>6</sup> في الليلة العاشرة من يوم السبت في شهر ربيع الأول سنة 549هـ/1145م في بلنسية من شرق الأندلس<sup>7</sup>. نشأ ابن جبير في بيته تحت تربية أبيه حيث جهزه أبوه لتعين على المراتب السامية وعلى المناصب العالية، فدرس العلوم من أبيه وتلمذ عند علماء عصره بمنطقة شاطبة وأراد بتعلم الأدب وفاق فيها وبرز في صناعة الكتابة<sup>8</sup>. فإنه ما لبث أن يتيقظ فيه المواهب الأدبية فشرع في قرض الشعر<sup>9</sup>. لاشك بأن ابن جبير تمتع بمكانة سامية لقدرته على نظم الشعر والنثر ولسعة علمه، وكذلك فاز على المناصب الكتابية وهو يعتبر من أكابر كتاب الدولة الموحدية الذين كانوا حكام الأندلس والمغرب<sup>10</sup>. يُعد من أبلغ الأدباء وشاعراً من أفضل الشعراء الذي وقف حياته للتعليم واشتغل في آخر أيام حياته في تدريس طلاب الحديث والفقه والتاريخ والجغرافية والأدب العربي. والطلاب كانوا يأتونه للتعليم من كل حذب وصوب<sup>11</sup>. ولا شك في أنه كان صاحب موهبة ويقظة، كما كان يهتم بسلاسة الأسلوب والملاحظة

<sup>6</sup> محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبدالسلام الكناني. فهو أندلسي شاطبي بلنسي أما سبب نسبته إلي بلنسية بأنه ولد بها على أرجح الأقوال وأما سبب نسبته إلى شاطبة فهو بسبب إقامته بها. أنظر: أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب (مصر: مكتبة القراءة والثقافة)، 8: 282.

<sup>7</sup> خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي، الأعلام (دمشق: دارالمأمون، مطبعة عيسى البابي الحلبي)، 5: 319. ولكن إختلف العلماء في تاريخ ولادته قيل: بأنه ولد في سنة 539هـ الموافق 1144م في قرية شاطبة أو بلنسية. أنظر: أحمد بن القاضي المكتنسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس (الرباط: دار المنصور، 1973ء).

<sup>8</sup> أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 2: 382.

<sup>9</sup> شوقي ضيف، الرحلات، 70.

<sup>10</sup> حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (قاهرة: مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية: 1986ء)، 429.

<sup>11</sup> علي بن عبدالله الدفاع، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية (الرياض: مكتبة التوبة، الطبعة الثانية، 1993ء) 173.

والدقة كما نرى في تاليه: "تذكرة الأخبار عن إتفاقات الأسفار" المعروف باسم رحلة ابن جبير التي دونها بعد زيارة لعدد من الأماكن والبلدان وسجل فيها مشاهداته بأسلوب بديع رائع.<sup>12</sup>

### رحلاته

لقد طاف ابن جبير العالم وجانب المشرق ثلاث مرات: **الرحلة الأولى**: أما سبب رحلته الأولى فقد أشار المقري إليه قائلاً: إنه كان كاتباً لسيد أبي سعيد صاحب غرناطة، فاستطلبه لأن يكتب عنه كتاباً وكان السيد أبو سعيد علي شرايه، فَمَدَّ إليه الكأس وأظهر عليه الإنقباض، فقال ياسيدي ما شربتها قط فقال: والله لأشربنك سبعة كأس فإذا رأي عزيمة شرب سبعة كأس فملأه السيد الطائس من دنانير سبع مرات وألقن في حجره، فذهب به إلى بيته وعزم ان يحج بتلك الدنانير كفارةً لشربه.<sup>13</sup> **الرحلة الثانية**: قام ابن جبير لهذه الرحلة في عام 585هـ/1189م.<sup>14</sup> عندما شاع خبر فتح المسجد الأقصى أي بيت المقدس علي يد السلطان الناصر صلاح الدين بن يوسف بن أيوب بن شادي فعزم على الرحلة الثانية. **الرحلة الثالثة**: قام ابن جبير لهذه الرحلة إلى الحجاز سنة 614هـ الموافق 1217م.<sup>15</sup> بعد وفات زوجته عاتكة أم المجد بنت أبي جعفر الوقشي<sup>16</sup> لحصول الراحة والسكون. فكانت هذه آخر رحلاته ولم يرجع إلى الأندلس مرة أخرى وطاف بين مكة وبيت المقدس والقاهرة والاسكندرية للتدريس حتي وافته المنية بالأسكندرية ليلة الأربعاء 29 شعبان 614هـ الموافق 1217م.<sup>17</sup>

### قيمة رحلته

<sup>12</sup> علي بن عبدالله، رواد علم الجغرافية، 172.

<sup>13</sup> أحمد بن محمد المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 2: 385، 386. وانظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة، 385، 386. وانظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (قاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012ء)، 57.

<sup>14</sup> كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963ء)، 2: 232.

<sup>15</sup> زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الواسطي، 67.

<sup>16</sup> فؤادقنديل، أدب الرحلة، 388.

<sup>17</sup> كراتشكو فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، 1: 299. وانظر: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الغرناطي الأندلسي، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ) 2: 239.

نال رحلة ابن جبير قيمة عظيمة أدبية عبارتها مفصلة سهلة بسيطة لا تثرثرة فيها ولا إستطرادات كما يزين عباراته بجمال التركيب وحلاوة البيان. وقد عني ابن جبير بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية والجغرافية والسياسية والثقافية والاقتصادية ويذكر عن الطرق والبحار والأنهار والعمائر والمساجد والمدارس والمستشفيات والمناخ والمدن والمسالك. يُعد رحلته مصدراً رئيسياً لكل باحثٍ في الأدب والتاريخ والحضارة العربية والجغرافية وغيرها، ويقال: إنها أول رحلة مدونة للأندلس، فلذا إستفاد الرحالون والجغرافيون الذين جاؤوا بعد ابن جبير علي حد سواء فإن رحلته من أحسن نموذجٍ لأدب الرحلات فابن جبير "هو الأدب المؤسس لهذا النمط".<sup>18</sup> نالت هذه الرحلة شهرة بين المتأديين واقتبس منها عديد من الرحالة والجغرافيين مثل المقري والعبدي والمقريزي ونقل ابن بطوطة من رحلته معلومات خاصة عن حلب ودمشق.

### ابن بطوطة

ولد الرحالة العظيم محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتي الطنجي<sup>19</sup> المعروف بشيوخ الرحاليين يوم الاثنين في السابع عشر من رجب الفرد سنة 703هـ<sup>20</sup> / 24 فبراير سنة 1304م.<sup>21</sup> وهو معروف بشمس الدين في بلاد الشرق<sup>22</sup> وفي الهند بدرالدين<sup>23</sup> ولقب باللواتي نسبة إلى قبيلة لواتة<sup>24</sup> والطنجي نسبة إلى مولده في مدينة طنجة.<sup>25</sup> نشأ ابن بطوطة في مدينة طنجة في حضن أسرة كريمة كانت تهتم كل الإهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية فنبح في علم الفقه وهو في

<sup>18</sup> علي بن عبدالله، رواد علم الجغرافية، 173.

<sup>19</sup> شهاب الدين احمد بن علي ابن حجر العسقلاني، الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (حيدرآباد/الهند: دائرة المعارف العثمانية، 1972ء)، 3: 48.

<sup>20</sup> العسقلاني، الدر الكامنة ، 6.

<sup>21</sup> فؤاد قنديل، أدب الرحلة، 488.

<sup>22</sup> أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ابن بطوطة، تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بولاق: المطبعة الأميرية، تحقيق وتهذيب: أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد، 1934ء)، 1: 4.

<sup>23</sup> ابن بطوطة، تحفة النظائر ، 509.

<sup>24</sup> كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، 1: 422.

<sup>25</sup> ابن بطوطة، تحفة النظائر ، 5: 1.

ربعان شبابه.<sup>26</sup> قد تعلم علي طريقة أقرانه في عصره فأولاً بدأ بحفظ القرآن الكريم ودرس علي كبار الشيوخ ليكون فقيها كأبيه وبقية الفضلاء من اهل بيته، ولكنه ما استطاع أن يتم دراسته لأنه خرج في للرحلة وهو في الحادية والعشرين من عمره وهذا يدل على انه لم ينتظر لتكميل دراسته الفقه، وفي هذا العصر كانت وقت هذه الدراسة طويلاً فليس يكون للرجل أن يفرغ من دراسته إلا في حدود الثلاثين.<sup>27</sup> ذكر ابن بطوطة في رحلته عن معرفته في علوم الدين قائلاً: "أما الوزارة والكتابة فليست شغلي وأما القضاء والمشخة فشغلي وشغل آبائي".<sup>28</sup> وله ميل واضح للمذهب المالكي وهوسائد بشمال إفريقيا لولم نجد معلومات كثيرة عن تعليمه ونشأته ولكن توليته علي المنصب القاضي بدهلي مرتين<sup>29</sup>، وجزائر ذيبة المهل وحتى علي الركب التونسي من حيث القاضي وذكره عن قاضي رندة في عصر دخوله عن ابن عمه الفقيه يحيي بن بطوطة يؤيد بأنه استفاد من الإزدهار العلمي في عصر بني مرين. كان شديد الحرص علي التمسك بتعاليم الدين الاسلامي إذا هويسمع عن رجل صالح أوعالم فيخرج إليه بلقائه والتبرك بدعائه. كان يثق في الكرامات وبالأولياء والزاهدين والفقراء المتعبدين يسرد الخوارق والمعجزات والكرامات بالكثرة في رحلته. كان أميناً صادقاً إذا نسي اسم مكان أو رجل لا يخرع له اسماً بل يقول: "ونسيت اسمه" ولذلك قيل له بالرحالة الأمين.<sup>30</sup> مارس في الشعر كما نري أنه مدح ملك الهند، على عادة العلماء المتفنين.

### رحلاته

لإبن بطوطة ثلاث رحلات: **الرحلة الأولى**: قام ابن بطوطة للرحلة الأولى سنة 1325م قاصداً إلى مكة المكرمة ولكن انقلبت رحلته إلى جولة حسب رغبتها واستغرقت فيها 24 سنة، فطاف شمال إفريقيا وآسيا وأهم عواصم العالم وحج في أثناء ذلك أربع مرات وعند البعض ست مرات.<sup>31</sup> **الرحلة**

<sup>26</sup> علي بن عبدالله، رواد علم الجغرافية، 707-

<sup>27</sup> حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته (قاهرة: دارالمعارف، 2003ء) 17-

<sup>28</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار، 2: 130-

<sup>29</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار ، 131-

<sup>30</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار ، 1: 12-

<sup>31</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار ، 15-

الثانية: قام ابن بطوطة للرحلة الثانية من فاس سنة 1349م.<sup>32</sup> كي يجاهد ضد الفوننس ولكن لم يقيم طويلاً بل أخذ أن يتنقل من بلد إلى بلد ليصفها حتى يرجع إلى فاس. الرحلة الثالثة: خرج ابن بطوطة للرحلة الثالثة من فاس سنة 1352م بحكم أبي عنان إلى تمبكتوليتصل ملوكها وأمراءها كي يرسم العلائق السياسية والتجارية فطاف مالي، سجدسامة، كارسخووغيرها ورجع إلى فاس حيث أملي رحلته إلى ابن جزى كاتب أبو عنان المريني.

### قيمة رحلته

نال رحلة ابن بطوطة شهرة عظيمة حيث أنها "معروفة متداولة بأيدي الناس وهي قصة جميلة تقرأ في لذة واستمتاع لأنها في صميمها مغامرة طويلة حافلة بالمعلومات الصادقة الدقيقة بالإضافة إلى ما فيها من الغرائب والطرف".<sup>33</sup> ولم يترك ابن بطوطة بلداً نزل بها إلا وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها وفضلائها، وبذلك كانت رحلته معرضاً كبيراً لحياة الأمم والأقاليم التي نزل بها من الوجهتين السياسية والاجتماعية. وكانت فيه نزعة دينية قوية، فأطال الوقوف عند رجال الدين وأمور الإسلام وزوايا المتصوفة.<sup>34</sup> أما أسلوب رحلته فقد وضعها ابن جزى بميل واضح إلى السجع والإطناب فهولا يستخدم أسلوباً واحداً على جميع صفحات الكتاب بل يميل أحياناً إلى اللغة المحادثة وأحياناً إلى الأسلوب القصصي.

### الأثار التاريخية لمدينة دمشق خلال رحلتي ابن جببر وابن بطوطة

إن مدينة دمشق هي أقدم مدن سوريا عمرت من عهد آدم.<sup>35</sup> فإن تاريخها عريق في القديم، إذا فتح العرب مدينة دمشق اهتم اهتماماً بالغاً بالمحافظة عليها ولرفع شأنها وجعلها عاصمة الدولة الإسلامية وقاعدتها اتسعت في عهد بني أمية ثم تواترت الفتن فيها في عهد بني عباس، واضمحل العباسيون معالمها الأموية إلا الجامع الكبير وظلت هكذا في ظل الدولة العباسية والفاطمية حتى جاءت آل سلجوق في القرن الحادي عشر للميلاد، وازدهرت تحت حكمهم وتحت ملوك الأتابكة البورية والنورية والأيوبية حتى أصبحت من أكبر قواعد الجهاد ضد الفرنجة في القرن الثاني عشر للميلاد، وأخذت

<sup>32</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار ، 15-

<sup>33</sup> حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته، 11-

<sup>34</sup> شوقي ضيف، الرحلات، 98-

<sup>35</sup> تقي الدين محمد أديب الحصني، كتاب منتخبات التواريخ لدمشق (بيروت: دار الآفاق الدجديّة، الطبعة:

الأولي 1985ء)، 1: 21-

مكانته العليا في السياسة والعسكر في العالم الاسلامي. فعاد النشاط التجارى والعلمى والدينى حتى أصبحت كمركز الحضارة الإسلامية في عهد المماليك كما أن أراد ابن جبير لزيارة الشام بشيوع الخبر المنبهج بفتح بيت المقدس. فزار مدينة دمشق في ربيع الآخر سنة ثمانين وخمس مائة واستصوره فقال: "هي جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بازاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين وتزينت في منصتها أجمل تزيين تتبرج لناظرها بمجتي صقيل، وتنادهيم: هلموا إلى معرس للحسن ومقيل، قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلي الظماء، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب". ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾<sup>36</sup>

ثم ننظر إلى ابن بطوطة الذي وصل إلى مدينة دمشق في شهر رمضان الكريم سنة ست وعشرين وسبع مائة. فيصفه كما وصف ابن جبير قبل ذلك ويفضل ابن بطوطة دمشق علي كل بلد كما فضل ابن جبير قبل ذلك باختيار الكلمات التي استعملها ابن جبير في تعريف دمشق. وما اكتفي ابن بطوطة علي ذلك بل إعترف وقال: "لا أبدع مما قاله ابوالحسين ابن جبير في ذكرها." يذكر ابن بطوطة عن شرف هذه البلدة بأن أوي المسيح وأمه فيها. ﴿إِلَى زَيْوَةِ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾<sup>37</sup> وفي تفسيره..<sup>38</sup> ظل ظليل وماء سلسبيل ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل. تتبرج لناظرها بمجتي صقيل.<sup>39</sup> هكذا ابن جبير تشرف هذه البلدة بمكان عيسى وأمه.

فنحن ننظر إلى السياحين اثنين (ابن جبير وابن بطوطة) فانهما لا يصفان هذه البلدة فقط بل يذكران المواضع المهمة ويبينان أحوالها التاريخية كما قال ابن بطوطة في توصيف جامع مسجد

<sup>36</sup> أنظر: محمد بن أحمد ابن جبير، تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار (بيروت: دارصادر، 1959ء)، 234.

<sup>37</sup> المؤمنون 23: 50- في تفسير ابن كثير قول سعيد ابن المسيب: بأنه هو دمشق- أنظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي، (المتوفى: 774هـ)، تفسير القرآن العظيم (رياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ، 1999ء)، 5: 476.

<sup>38</sup> وفي تفسير القرطبي آراء مختلفة منها قول ابن عَبَّاسٍ وَابْنِ الْمُسَيَّبِ وَابْنِ سَلَامٍ: يقولون بأن يراد به دمشق والآخرين يقولون بأن يراد به الرملة- أنظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ / 1964ء)، 12: 126 ولكن الأغلب بأنه هو دمشق كما وجدنا ذكر نزول عيسى على المنارة البيضاء شرقي دمشق. والله أعلم بالصواب.

<sup>39</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 68.

دمشق فقال: "وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً وأتقنها صناعاً وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيهه".<sup>40</sup> ويرى ابن جبير مثل ذلك ومع ذلك يصف وصف المسجد ويقول: "من عجيب شأنه أنه لا تنسج له العنكبوت ولا تدخله، ولا تُلمُّ به الطير المعروفة بالخطاف".<sup>41</sup> وهكذا يتفق السياحان (ابن بطوطة وابن جبير) علي أنه من بناة الوليد ابن عبدالمك. فقال ابن جبير:

انتدب لبنائه الوليد ابن عبدالمك ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره  
باشخاص اثني عشر الفا من الصنائع من بلاده وتقدم إليه بالوعيد في ذلك إن  
توقف عنه.<sup>42</sup>

وقال ابن بطوطة: وكان الذي تولي بنائه واتقانه أمير المومنين الوليد بن عبدالمك ابن مروان ووجهه  
الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره ان يبعث اليه الصنائع فبعث اليه اثني عشر ألفا صناعاً.<sup>43</sup> ثم  
يتفقان علي إهدام نصف الكنيسة ويذكران قول وليد ابن عبدالمك الذي قاله لتكذيب زعم  
النصاري الذين يحسبون ان الذي يهدمها يجن. فقال الوليد: "أنا أول من يجن في سبيل الله"،  
وحمل الفاس وهدمه بنفسه.<sup>44</sup> يذكر ابن جبير استغاثة النصاري في عهد عمر بن عبدالعزيز فيقول:

استغاث النصاري زمان عمر ابن عبدالعزيز واستعدوا عمر بن عبد العزيز أيام  
خلافته وأخرجوا العهد الذي بأيديهم من الصحابة في ابقائه عليهم فهم بصرفه  
اليهم فأشفق المسلمون من ذلك ثم عوضهم منه بمالٍ عظيمٍ أرضاهم به  
فقبلوه.<sup>45</sup>

<sup>40</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 71.

<sup>41</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 235.

<sup>42</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 235.

<sup>43</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 71.

<sup>44</sup> أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ/1995ء)، 2: 254. وأنظر: محمد بن أحمد ابن جبير، رحلة ابن جبير، 236. وأنظر

ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، 1: 71.

<sup>45</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 236.

ولكن ما وجدنا ذكره في رحلة ابن بطوطة. يذكر ابن جبير في فضائل المسجد وجامع دمشق عن سفيان الثوري قال: إن الصلاة فيه يساوي بثلاثين الف صلاة،<sup>46</sup> وفي الحديث عن النبي ﷺ: "أنه يعبد الله عزوجل فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة."<sup>47</sup> ويقول ابن بطوطة:

قرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري إن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين الف صلاة، وفي الاثر عن النبي ﷺ أنه قال: "يعبدالله فيه بعد خراب الدنيا اربعين سنة."<sup>48</sup>

### مقبرة مريم

يذكر ابن بطوطة مقبرة مريم: حول دمشق مطلقاً ولم يذكر ولم يشر موضعاً خاصاً. بل يقول: إن مقبرة مريم حول دمشق في القصر ويذكر مقابر أبي مسلم الكولاني وأبي سليمان الداراني في موضع خاص ولم يذكر ابن جبير فيه شيئاً.<sup>49</sup>

### مسجد الأقدام

يذكر ابن جبير مسجد الأقدام في مشهدة مباركة ومشهورة ويذكر الأقدام التي ينسب إليها ويذكر آثارهم ويزين رحلته بالعبارة التي كتبت علي الحجارة في المحراب. فعجب ابن بطوطة علي أهل دمشق إذا نظر إليهم أنهم يعظمون هذا المسجد تعظيماً كثيراً لكن اذا عرف سببه فذكر: رحل الناس علي حكم الملك إلى هذا المسجد تضرعاً إلى الله ودعاء من نجاه طاعون فقبلت دعوتهم، ونجوم الطاعون الذي فشا في قاهرة ومصر.<sup>50</sup> ويذكر ابن جبير مسجد الأقدام ايضاً لكن لم يذكر شهرته وبركته شيئاً ويبين أقدام موسى.<sup>51</sup> يقول ابن بطوطة في ذكر منارة بيضاء في باب شرقي

<sup>46</sup> الحاشية، علامة ابن عابدين، 1: 41، عن كتاب أخبار الدول بالسند إلى سفيان الثوري وأخرجه أبو الحسن الربيعي في فضائل الشام ودمشق، 3: 35؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق، 2: 12 ولكن يقول الألباني بأن سنده ضعيف مجهول بل يقول بأنه باطل لا أصل له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن السفيان الثوري. أنظر: محمد ناصر الدين الألباني، تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد (بيروت: المكتبة الإسلامية، 1403هـ)، 134-

<sup>47</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 236-

<sup>48</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 73-

<sup>49</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 81-

<sup>50</sup> ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 79-

<sup>51</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 254-

بدمشق: بأن الناس يقول: هذه المنارة هي التي ينزل عليها عيسى بدمشق، ثم يقول ابن بطوطة: بأن ذكر نزول عيسى علي هذه المنارة موجود في صحيح مسلم. لكن ابن جبير لم يذكر هذه المنارة.<sup>52</sup>

### غار ابراهيم

يذكر ابن بطوطة في شمال دمشق جبل قاسيون وبلدة صالحية، ثم يذكر من مظاهره المكرمة "الغار" الذي قد وُلِدَ فيه ابراهيم الخليل والغار الذي رأي منه الشمس والقمر والكوكب علي ما ورد في القرآن الكريم<sup>53</sup> وفي ظهر الغار يذكر المقام الذي كان يخرج اليه. فنري بأن السياحين يتفقان في مولد ابراهيم علي أنه قريب من جبل قاسيون لكن ابن جبير يقول: "هو بصفح جبل قاسيون عند قرية تعرف ببرزة وهو في الجهة الشمالية من البلد وعلى مقدار فرسخ . وابن بطوطة يذكر عن مولد ابراهيم أنه جبل من جبال قاسيون مطلقاً."<sup>54</sup>

### بيت الالهية

يذكر ابن جبير أن بيت الالهية في الجانب الشرقي من البلد عن الطريق الأيمن إلى مولد ابراهيم. ويؤيد ابن بطوطة بأن بيت الالهية في جهة المشرق من دمشق وكانت فيها كنيسة كان أزر ابوابراهيم ينحت فيها الألهة فيجيء الخليل فيكسرهما. ويذكران معا أن هنا مسجد جميل.<sup>55</sup>

### أويس القرني

يذكر ابن بطوطة في مقبرة أويس القرني رواية كتاب القرطبي المعلم في شرح مسلم كما يذكر ابن جبير مقبرة أويس القرني.<sup>56</sup>

### مغارة الدم

يذكر ابن بطوطة مغارة الدم ويقول: وفوق ذلك مقتل هابيل ابن آدم إذا قتل قابيل هابيل فجره الي هذه المغارة وألقي فيها ويتفق ابن جبير بابن بطوطة في مقتل هابيل ومقبرته ويقولان: "قد ابقي

<sup>52</sup> رحلة ابن جبير ، 248-

<sup>53</sup> ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال لها قاسيون أى ولد في أسفل جبل قاسيون في الغرب كما قيل بأن الدعاء هناك مستجاب- أنظر: أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق (بيروت: دار الكتب العلمية، تحقيق: عطاء مصطفى عبد القادر)، 1: 460-

<sup>54</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 246؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، 82-

<sup>55</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 249؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 82-

<sup>56</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 249؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 83-

الله منه في الجبل آثاراً حمراً في الحجارة" ويقول ابن جبير اذا تحك هذه الحجارة فتخرج منها حمرة وهي من آيات الله تعالى. كما يقول: وقرأنا في تاريخ ابن المعلي الاسدي: "ان تلك المغارة صلي فيها ابراهيم وموسى وعيسى ولوط وايوب".<sup>57</sup> ويذكر ابن بطوطة مثل ذلك.<sup>58</sup>

#### باب الفراديس

يذكر ابن بطوطة وابن جبير: ان خارج هذا البلد الجبانة العتيقة وهي مدفن الأنبياء والصالحين. ويقول ابن بطوطة: ان باب الفراديس بين قاسيون الجبل مدفن سبعين الف نبى أوسع مائة نبى. ويقول ابن جبير: مدفن سبعين ألف شهيد أوسع مئة نبى.<sup>59</sup>

#### مغارة الجوع

يقول ابن جبير: "ذكرنا سبعين نبياً ماتوا فيها جوعاً، وكان عندهم رغيغ فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ويدور عليهم من يدٍ الي يدٍ حتي لحقتهم المنية". وكذلك يذكر ابن بطوطة في رحلته.<sup>60</sup>

#### قبور الشهداء

يذكر ابن بطوطة في صحاري قبور الشهداء أنها في جانب الغربي من دمشق ويذكر أن فيها مقابر أصحاب بيعت رضوان وغير ذلك من الصحابة والتابعين والأئمة الصالحين ويقول ابن جبير: "والدعاء في هذا الموضع المبارك مستجاب، قد جرب ذلك كثير من الأولياء".<sup>61</sup> ونحن ننظر إلى السياحين إذا ذهبوا منيحة الشرقي بدمشق يبينان أن هناك مقبرة صحابي سيد خزرج سعد بن عبادة الانصاري نحواً من اربعة اميال ويذكران عبارة التي كتبت على مقبرته.

#### مقبرة أم اكلثوم

<sup>57</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 254؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 78.

<sup>58</sup> يؤيد قول ابن عساكر بأن هناك مقتل ابن ادم كما يذكر عن خروج عمر بن عبد العزيزو معاوية إلى موضع الدم للإستسقاء حتى نزل المطر- أنظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1: 465.

<sup>59</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 247؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، 1: 80، 81. ويذكر ابن عساكر مقبرة مريم بنت عمران وابنها الحواريون في مقبرة الفراديس- أنظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 1: 468.

<sup>60</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 248؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، 1: 81.

<sup>61</sup> ابن جبير، رحلة ابن جبير، 248؛ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، 1: 81.

يذكر ابن بطوطة مقبرة أم كلثوم بنت علي وفاطمة بالتفصيل. ويذكر أيضاً اسمها الحقيقي وسبب كنيتهما. ويذكر أيضاً ابن جبير مشهد أم كلثوم وموضعه واسمها الحقيقي وكنيتها وسببها.

### مقبرة زكريا

يذكر ابن بطوطة في وسط المسجد مقبرة زكريا، ويقول: "كتب علي غلافها السواد الحريري، بالحرير الأبيض يا زكريا ﴿يَا زَكْرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ [مريم 19: 7].<sup>62</sup> ويذكر ابن جبير في زيارة دمشق رأس النبي الذي دفن في المسجد قبل القبلة.<sup>63</sup>

### مقابر حسن وحسين

يذكر ابن بطوطة رأس الحسن في المقبرة التي عند باب المسجد الشرقي شمالاً.<sup>64</sup> ولكن ابن جبير إذا يذكر روضته فيقول: "وضع هناك رأس الحسن ثم انتقل إلى القاهرة". يذكر مقبرة الحسن والحسين في المقبرة الغربي. لكن ابن بطوطة لم يذكر مثل ذلك. ويبين ابن جبير المقامات والمشاهد والمقابر المهمة منها مقبرة أم المؤمنين أم حبيبة ومعاوية ومؤذن الرسول ﷺ بلال وكعب الاحبار وأويس القرني وغير ذلك. ويذكران مقبرة أم حبيبة ومعاوية بين باب الجابية وباب الصغير.<sup>65</sup>

### نتائج البحث

كما ذكرنا في البداية إن أدب الرحلة أدب له صلات قوية بالأدب والعلوم المختلفة ويضم فيه كمية كبيرة من المعلومات التاريخية والجغرافية وغيرها حيث يستفيد القارئ من قرائتها ويتعرف عن المدن والأماكن القديمة والتاريخية وعن الملوك والشخصيات المعروفة وهكذا يعرف أصحاب الحلم وغيرهم. رأينا خلال دراستنا هذه أن كل واحد من الرحالتين له أسلوب ومذاق خاص فنراهم يتفوقون في آن ويختلفون في آخر، حتى في وصف نفس البلاد، والأماكن، والشخصيات والمعلومات الأخرى. فبناءً على ذلك وصلنا إلى النتائج التالية:

1- إتفق ابن بطوطة وابن جبير في وصف دمشق الثنائي علمياً بالتفصيل ذكروا حدائقها وعماراتها الشاهقة وحسنها الجذاب. 2- يتحدث ابن جبير عن استغاث النصارى في كلامه عن دمشق ولكن ابن بطوطة لم يذكر ذلك. 3- ذكر كل واحد منهم مسجد الأقدام فتحدث ابن بطوطة عن بركته

<sup>62</sup>: المريم، 19: 7.

<sup>63</sup>: ابن جبير، رحلة ابن جبير، 246.

<sup>64</sup>: ابن بطوطة، تحفة النظار، 1: 74.

<sup>65</sup>: ابن جبير، رحلة ابن جبير، 251.

وشهرته ولكن ابن جبير لم يذكر من ذلك شيئاً.4- يقول ابن بطوطة كنت زينب أم كلثوم بنفسها، ويقول ابن جبير كنى النبي زينب أم كلثوم.5- يقول ابن بطوطة: إن رأس الحسين رضى الله عنه في المقبرة التي عند باب المسجد الشرقي شمالاً، ويقول ابن جبير هناك رأس الحسين رضى الله عنه ثم انتقل الى القاهرة.6- يذكر ابن جبير مقبرة الحسن والحسين في المقبرة الغربية، ولكن ابن بطوطة لم يذكر ذلك.7- يذكر ابن بطوطة صحاى قبور الشهداء إنها في جانب الغربى ويذكر ان فيها مقابر أصحاب بيعة الرضوان، ويقول ابن جبير فيها مقابر أصحاب الرضوان من الصحابة والتابعين والأئمة الصالحين. ويقول ابن جبير هناك تستجاب الدعوات وهي تجربتي.8- ذكر ابن بطوطة في رحلته مقابر أبى مسلم الخولانى وأبى سليمان الرزاق، وابن جبير لم يذكر ذلك.9- ويقول ابن بطوطة في حديثه عن موضع مقبرة مريم عليها السلام أنه حول دمشق مطلقاً، وابن جبير لم يناقش ذلك.10- تحدث ابن بطوطة خلال الكلام عن دمشق عن المنارة البيضاء التي ينزل عليها المسيح، ولكن ابن جبير لم يتحدث عن هذه المنارة.11- قال ابن بطوطة: إن قبر ابراهيم في شمال جبل قاسيون والبلدة الصالحة وذكر الغار المبارك الذى ولد فيه ابراهيم ورأى منه الشمس والقمر، ولما ذكر ابن جبير جبل قاسيون قال هو عند قرية ببرزة وهو في الجهة الشمالية من البلدة.12- لما ذكر ابن بطوطة اويس القرنى ذكر الروايات التاريخية عن قبره وما يتعلق به، ولكن ابن جبير لم يناقش تلك البحوث. وهكذا ذكر كل منهم مغارة الجوع واتفقوا في ذكر التفاصيل عنها.

بعد قراءة هذا المقال وصلنا إلى أن آثار دمشق تختص بمعالمها ومبانيها الفاخرة، كانت هذه الآثار ولا تزال تعرض علينا شموخها وبراعتها مهما مرت عليها العهود، وهكذا أن أدب الرحلة له دور هام في علم التاريخ، ولا نبالغ إذا قلنا أن أدب الرحلة من أهم مصادر التاريخ القديم، وهكذا أن آثار دمشق القديمة لها قيمة تاريخية كبرى بين الآثار العالمية الأخرى، لأن آثار دمشق هي ليست ثروة علمية أدبية ودينية للمسلمين فقط بل هي ثروة لحاملي جميع الديانات الأخرى، وأخيراً أقول أن هذه الآثار تقتضي منا ومن ولاة أمرها خاصة العناية الخاصة كي لا تفني مع مرور الزمن، وكي تبقي شامخة كيومها للأجيال القادمة.